الحكومة المصرية وسياسة التعليم

[اشرنا في مقتطف نوفمبر الماضي الى وفاة الدكتور اليوت الاميركي والى رأيهِ في سياسة التعليم في مصر. وها نحن نثبت رأيهُ هذا الذي ابداهُ حين زيارتهِ للقطر المصري سنة ١٨٩٥ ونشرناهُ في مقتطف مايو ١٨٩٥ صفحة ٣٧٨]

اولاً انهُ رأى نظارة المعارف تعتمد بعض الاعتماد على الامتحان الشفاهي. ويعترض على ذلك من ثلاثة اوجه . الاول ان المسائل لا تكون واحدة لكل الذين يتقدمون الى الامتحان. والثاني انها لا تضمن ان يعامَل جميع الممتحَنين بالسواء على اختلاف اجناسهم ومذاهبهم كما تضمن ذلك المسائل الكتابية والاجوبة الكتابية . والثالث انها لا تدلُّ على كيفية التعليم وتقدمهِ كما تدلُّ المسائل المكتتبة في الامتحان السنوي . والاساليب التي تتبع في امتحان الطلبة والموظفين يجب ان تكون على غاية العدالة والانصاف وان يكون ذلك واضحاً فيها تمام الوضوح من نفسهِ ولاسيما في بلاد أُلِفت ترقية المستخدمين بالصنيعة

ثانياً انهُ رأى ميل نظارة المعارف حديثاً الى تقليل عدد الطلبة الذين يتعلمون مجاناً في مدارس الحكومة والى منع اختيارهم بالصنيعة وحيث ان نظارة المعارف لا تقدر ان تعلّم مجاناً الاَّ عدداً قليلاً من الطلبة فخير اسلوب تجري عليهِ في قبول الطلبة هو ان تقبل الذين يرغب والدوهم في الانفاق على تعليمهم. واما التلامذة الذين تعلمهم مجاناً فتختارهم من الفقراء الذين ظهرت نجابتهم في التعلم

ثالثاً ان هذا الاسلوب يحصر الفائدة من نظارة المعارف في عدد قليل من الاولاد والعيال فيحسن ان يُبحث عن اسلوب آخر يتَّسع بهِ نطاق المعارف من غير زيادة طائلة في ميزانية النظارة

وقد ظهر لهُ من محادثة مَن قابلهم في القطر المصري ومما قرأهُ عن احوال هذه البلاد ان الاهالي من كل المذاهب والاجناس معتادون وقف الاموال على المدارس والتعليم وهذه الاموال الموقوفة كثيرة الآن ولكن بعضها لا يستفاد منهُ وبعضها يحتاج الى حسن الادارة لكي يعم نفعهُ الجمهور . أفلا يمكن ان تصدر الحكومة امراً خديوياً (دكرتو) يوجب على كل ولد مصري بين السنة الثامنة والثانية عشرة ان يكون عارفاً بالقراءة والكتابة و بمبادىء الحساب والجغرافية. ولنظارة المعارف ان تعيّن اناساً يمتحنون التلامذة ويحكمون بقيامهم بحسب منطوق الامر الخديوي . ويعمل بهذا الامر من سنة

١٩٠٠ فصاعداً او نحو ذلك . ويحق لكل المدارس التي في القطر المصري مهما كان نوعها ومذهب اصحابها ان تعلّم التلامذة على الاسلوب الذي تختاره بشرط ان تقوم بمنطوق الامر العالي . وهذا يضطر اهالي القطر المصري كلهم الى تعليم اولادهم ويدعو اهل البر والاحسان الى انشاء المدارس الكافية لذلك

رابعاً انهُ قد عجب من براعة التلامذة المصريين في تعلّم اللغات الاجنبية وفي كل العلوم المتوقفة على الذاكرة وقال انهُ لا داعي لحثهم على ذلك ولكن يجب ان يُحثّوا و يُدرّبوا على البحث العلمي والاستقلال وهذا التدريب لا يقوم بحفظ قواعد التاريخ الطبيعي والرياضيات والكيمياء من الكتب ولا بمشاهدة التجارب العلمية بل يجب على التلميذ ان يمتحن ما يتعلمهُ بنفسهِ و يكتب ما يعلمهُ بالمشاهدة والامتحان و يجب ان يدرّب على استنتاج النتائج الصحيحة من مقدماتها . ولا يبلغ الطلبة تلك المرتبة العلمية التي امتاز بها قادة الامم المرتقية في السنين الاخيرة بل امتاز بها العمران الحديث الاّ بقرن العلم بالعمل في المعامل العلمية حيث يمتحن الطلبة القضايا العلمية ويكتبون الحقائق التي يقفون عليها بالامتحان

ومن رأيهِ ان تضاف المعامل العلمية الى مدارس الحكومة التجهيزية الآن ثم تضاف مع الزمان الى الفرق العليا في المدارس الابتدائية . وقد وجد الاميركيون ان الطبيعيات اقرب العلوم مأخذاً لان عقول الطلبة تكون قد أُعدّت لها بدرس علم الاشياء . و يندر ان يستطيع مدرّس اللغات او مدرس علوم الادب ان يخرّج التلامذة في العلوم الطبيعية التي تعلّم في المعامل العلمية لان الذي يعتمد على الكتب يندر ان يدرّب تلامذتهُ على إعمال الفكر وتدقيق البحث بدلاً من ان يحاول اثبات ما يُذكر في الكتاب . ولذلك تدعو الحال الى استخدام اناس خاصين يعلّمون في المعامل العلمية

واستعمال كتب التعليم الانكليزية والفرنسوية مفيد من حيث اللغة ولكن لا فائدة منهُ من حيث العلم بل قد يكون منهُ ضرر لان التلميذ يحسب انهُ تعلم شيئاً من العلم وهو انما حفظ شيئاً من الحقائق العلمية . وعلم النبات وعلم الحيوان مفيدان في نفسهما ولكن فائدتهما اقل من فائدة الطبيعيات والكيمياء لانهُ يستحيل اجراء التجارب العلمية في علمي النبات والحيوان في بوهة قصيرة ولان ما فيهما من الاسماء والتقاسيم يجهد الذاكرة لا غير

ويمكن التدرّج في التعليم العملي في المعامل العلمية رويداً رويداً فيُبدأ بهِ في فرقة مؤلفة من اثني عشر تلميذاً في مدرسة او مدرستين من المدارس التجهيزية ثم يوسّع نطاقهُ الى ان يشمل التلامذة من سن اثني عشرة فصاعداً في المدارس الابتدائية . وفي ذلك اساس

الارتقاء المنتظر لان تقوية الذاكرة وايعاء الحوادث التاريخية فيها والقواعد العلية لا يحمل التلامذة على البحث عن الحقائق وهذا البحث هو اساس العلم الحديث الذي غيّر وجه الارض في زماننا وقلب حال الاجتماع الانساني وهو السبيل لارتقاء مصر واستقلالها

خامساً ان كل باحث في احوال الشرق من ابناء اوربا واميركا يرى ان اعظم سبب لتقهقر الشرقيين وقلة تقدمهم هو حجب النساء وجهلهنّ . فانهُ اذا كانت الامهات غير متعلمات فتعلم الآباء لا يفي بالحاجة المطلوبة . واذا حجبت النساء فضعفت قواهنّ العقلية والادبية بواسطة الحجاب على توالي الايام والاعوام فقوى الامة لا ترتقي الاّ نصف ارتقاء . لكن حجب النساء عادة قديمة راسخة في القطر المصري حتى لا يحسن بنظارة المعارف ان تحاول نزعها دفعة واحدة وغاية ما يمكنها فعلهُ ان تسعى في تغيير آراء الرجال في النساء وقد فعلت شيئاً من ذلك بانشاء مدرسة الممرّضات والقوابل . ثم اشار باسلوب آخر لذلك وهو ادخال المدارس الصغيرة المسماة بالالمانية « كندرغارتن » اي « بستان الاولاد » وقال انهُ ليس من الضرورة ان تهتم نظارة المعارف نفسها بانشاء هذه المدارس بل يهتم بذلك جماعة من الاهالي ممن لهم اولاد صغار في السن المناسب لها فيأتون بامرأة المانية او انكليزية عارفة طريقة التعليم في « بستان الاولاد » جيداً ويأتونها بالادوات اللازمة لذلك مدة ثلاث سنوات فتعلم الاولاد من سن اربع او خمس الى سن سبع او ثمان من الصبيان والبنات معاً . ويدعى الوجهاء من آباء الاولاد الصغار من وقت الى آخر ليشاهدوا هذه المدرسة ويروا تقدُّم تلامذتها فتحملهم الغيرة على انشاء مدارس اخرى مثلها . ويحسن بالحكومة في اول الامر ان تساعد هذه المدارس بشيء من المال على شرط ان تتعلّم في كل مدرسة منها اثنتان من النساء المصريات كيفية التعليم فيها ثم تفتحان مدرسة مثلها تعلمان فيها الصغار باللغة العربية وتعلمان ايضاً امرأتين اخريين طريقة التعليم فيها . ويحسن بنظارة المعارف ان تنشئ منتدًى تجتمع فيهِ الامهات وتلقى عليهنّ الخطب في كيفية تعليم الصغار بحسب اسلوب هذه المدارس

واذا انتشرت « بساتين الصغار » في القطر المصري سهل على اهله استخدام المعلمات لتعليم الفرق الصغرى في المدارس الابتدائية وسهل عليهم ايضاً ان يعلموا في مدرسة واحدة الصبيان والبنات الذين عمرهم عشر سنوات او اقل

ومعلوم ان هذا الاسلوب يؤثر تأثيراً كبيراً في مسألة تحجب النساء لان الفتيات المصريات اللواتي يتولينَ ادارة « بساتين الصغار » او المدارس الابتدائية يصرن

يكتسبن مالاً يرفع منزلتهن في عيون اقاربهن وعلى توالي الايام يصير الرجال يقدّرون المرأة قدرها من هذا القبيل . واشتهار المعلمات بالآداب ينزع ما رسخ في الاذهان من ان الحجاب لازم لحفظ العفة والطهارة . وقد كان تعليم الصغار اول حرفة احترفتها النساء في الولايات المتحدة الاميركية وهن الآن قابضات على ازمّة هذه الحرفة في مدارس الحكومة وفي المدارس الاهلية عموماً . ثم احترفن حرفاً اخرى فاستفدن وافدن ولكن البداءة كانت في تعليم الصغار فيحسن بالقطر المصري ان يجري مجرى الولايات المتحدة في ذلك

سادساً ان نظارة المعارف المصرية قد اجتهدت في السنين الاخيرة لكي لا تقبل في المدارس العليا الاّ من حاز الشهادة من المدارس التي تحتها من غير استثناء وقال ان اهمال هذه القاعدة قد اضرّ كثيراً في الولايات المتحدة الاميركية وان اختبارهُ الطويل يجعلهُ يطلب من نظارة المعارف ان لا تتغاضى عن هذا الامر مطلقاً مهما حال دونها من المصاعب لانهُ لا يوجد سبيل آخر لجلب التلامذة الى المدارس العليا ولا سبيل افضل منهُ لتقوية شأن المدارس الصغرى

سابعاً في الولايات المتحدة الاميركية جمعيات كثيرة مؤلفة من المتخرّجين في المدارس التجهيزية والكلية والجامعة . والغالب ان هذه الجمعيات تلتئم كل سنة ولكن الغرض الاهم منها ان تحفظ تاريخاً لكل عضوٍ من اعضائها ولتقوّي روابط الاتحاد بينهم والغالب ان تلامذة كل فرقة من فرق المدارس الكبرى يتعهدون عند انتهائهم من المدرسة اتحاداً يدوم مدى العمر ويسمّون انفسهم بالنسبة الى السنة التي اتموا دروسهم فيها فيقولون مثلاً فرقة ١٨٦٥ او فرقة سنة ١٨٩٥ وهلمّ جرّاً . ويسعى كلٌّ منهم في ترويج مصالح اخوانهِ ومصالح المدرسة التي تعلموا فيها . وقد ثبت بالامتحان ان ذلك يكسب عرى الصداقة وعزّة النفس ويحبّب الى المرء العلم واهلهُ والوطن وبنيهِ و ينير اذهان الامة كلها حتى تعتبر فوائد التربية والتهذيب . فانشاء هذه الجمعيات في القطر المصري مفيد جدّاً لهُ ولا حقّ لنا ان ننتظر من الشبان ان ينشئوها من تلقاء انفسهم . ولذلك يحسن برؤساء المدارس ان يسجّلوا اخبار تلامذتهم واخبار عيالهم لان كل ما يرفع شأن العائلة و يدعو الى الافتخار بها يرفع شأن الوطن و يقوي العواطف الوطنية

ثامناً لا بدّ من حثّ الحكومة دواماً لكي تزيد ميزانية المعارف ويجب ان يشترك في هذا الحث كل الذين يهمهم خير القطر المصري ولا عذر للحكومة الآن الاّ فقر البلاد ولكن تعميم التعليم هو الاسلوب الاكيد لتعميم الاصلاح الزراعي والصناعي والمالي والاداري